



الرفق بالوالدين :

أمر الله سبحانه وتعالى بالرفق بالوالدين والإحسان إليهما وبرهما في عدد من الآيات كقوله سبحانه: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا يَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾

الرفق مع الإخوان :

كل إنسان منا له أصدقاء، وله زملاء، وله إخوان في الله، أناس كثيرون له علاقة بهم، هؤلاء الناس لا بد أن يرفق بهم، قال الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ اخفض جناحك : أي : كن لينًا هينًا رفيقًا بهم متواضعًا لهم.

لذلك إذا دقت في الأسباب التي تؤدي إلى انفصام عرى الأخوة بين كثير من المسلمين، ووجدتها في طرف من الأطراف، أو في كلا الطرفين، لوجدت الأمر حدة في الطبع، وصعوبة في التعامل، وخشونة في الألفاظ، وغلظة، وعزة على المسلمين، بدلًا من أن يكون الأمر: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

ولكن انقلب الأمر عند كثير من المسلمين اليوم - للأسف - إلى أن يكونوا أذلة على الكافرين، أعزة على إخوانهم المؤمنين، فكثيرًا ما يجد الأخ بينه وبين أخيه وحشة وتنافرًا، لو دقق في التفكير لوجد السبب يعود إلى هذه العوامل التي ذكرناها التي يسببها فقدان الرفق. فانعدام الرفق هو الذي يسبب هذه الوحشة وهذا التقاطع والتنافر، لا بد من قبول أعذار الناس، والمسامحة معهم، لا بد من اللين مع الإخوان في المعاملة، ولا بد من خفض الجناح.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم «يَتَخَلَّفُ فِي الْمَسِيرِ فَيُرْجَى الضَّعِيفُ وَيُرْدَفُ وَيَدْعُو لَهُمْ».

حث الإسلام على الرفق واللين :

اللين والرفق واليسر والسماحة من الخصال الحميدة والصفات النبيلة التي جاء الإسلام، بالحث عليها والدعوة إلى التحلي بها، والتناء على أهلها والقائمين بها، إنها أساس المحبة والتعاطف بين الناس، وجالبة السماحة والمودة في التعاملات، ودليل كمال الإيمان وحسن الإسلام، وعنوان فلاح العبد وسعادته في الدارين، وصلاحه وحسن خلقه مع الآخرين، وسبب من أعظم أسباب رحمة الله تعالى للعباد، قال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ عِبَادَهُ الرَّحَمَاءُ».

6- الرفق خير رزق للمرء :

ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم مبيِّنًا الأثر السلبي والدرجة التي يكون عليها الرجل العنيد الذي حرم الرفق بقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: «ن أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ فَقَدْ خَرِمَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَمَنْ حَرَمَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ، فَقَدْ حَرَمَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ». إذا لم يوجد رفق يعني: لا يوجد خير، هكذا بهذه البساطة.

7- الرفق من محبة الله للعباد:

عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِأَهْلِ بَيْتٍ خَيْرًا أَدَخَلَ عَلَيْهِمُ الرَّفْقَ». وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَا أُعْطِيَ أَهْلُ بَيْتِ الرَّفْقِ إِلَّا نَفْعُهُمْ».

8- من حرم الرفق حرم الخير :

عن جرير رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ حَرَمَ الرَّفْقَ حَرَمَ الْخَيْرَ أَوْ مَنْ حَرَمَ الرَّفْقَ حَرَمَ الْخَيْرَ». أي: يحرم قدرًا كبيرًا من الخير. أي: يحرم خير العمل الذي استخدم فيه العنف، وانعدم فيه الرفق، وذلك لأن أسلوب العنف أسلوب لا يأتي بخير.

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَلَا يَنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ». (شانه) أي: عابه. ففيه الحث على أن يكون الإنسان رفيقًا في جميع شئونه رفيقًا في معاملة أهله، وفي معاملة إخوانه وفي معاملة أصدقائه وفي معاملة عامة الناس يرفق بهم، فإن الله تعالى رفيق يحب الرفق .

9- الرفق فوز ومنجاة في الآخرة :

قال صلى الله عليه وسلم: «أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَّصِدِقٌ مُؤَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٌ، وَعَقِيفٌ مُتَعَقِّفٌ ذُو عِيَالٍ». يرحم عباد الله، يرحم الفقراء والعجزة والصغار وكل من يستحق الرحمة، رقيق القلب ليس قلبه قاسيًا، لكل ذي قربي ومسلم، وأما للكفار فإنه غليظ عليهم هذا أيضا من أهل الجنة أن يكون الإنسان رقيق القلب يعني فيه لين وفيه شفقة على كل ذي قربي ومسلم.

وقال صلى الله عليه وسلم: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرَمُ عَلَى النَّارِ؟ أَوْ بِمَنْ تُحْرَمُ عَلَيْهِ النَّارُ؟ قَالَ: كُلُّ هَيْنٍ لَيْنٍ، قَرِيبٍ سَهْلٍ».

4- دعاء النبي صلى الله عليه وسلم للرفقاء:

فدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم مستجابة في حق كل من رفق بالأمة أن يرفق الله تعالى به ويحفظه، وفي حق كل من شق على الأمة وضايقها في دينها ودنياها وأمنها واقتصادها وإعلامها وغير ذلك، أن الله تعالى يشق عليه، ويسلط عليه. قال صلى الله عليه وسلم: «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْتُقْ عَلَيْهِ وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَارْفُقْ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ».

قال المناوي: «وقد استجيب فلا يرى ذو ولاية جار إلا وعاقبة أمره البوار والخسار».

ولا يشترط أن يكون المقصود من الحديث الخليفة أو الحاكم، فيمكن أن يكون أدنى منه بكثير، من ولي ولو أمر رجل واحد، من ولي أمر رجل واحد من المسلمين، يجب عليه أن يرفق به، فما بالك بالذي يلي أمر اثنين، أو ثلاثة، أو عشرة، أو مجموعة من البشر.

فالمدير في مدرسته، والوزير في دائرته، وكل صاحب سلطان وولاية، وكل صاحب أسرة يجب أن يرفق بمن تحت يديه، وبمن هو مسئول عنه، وإلا فإن الله سيشق عليهم يوم القيامة، وفي الدنيا أيضًا، فالدعاء عام.

5- الرفق خير من العنف:

فلذلك روى الإمام مسلم رحمه الله عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ». قال ابن حجر رحمه الله: «يعني: أن الرفق يتأتى معه من الأمور ما لا يتأتى مع ضده، تأتى بالرفق أشياء، وتتفتح لك مغاليق أمور لا تتفتح لك بغير الرفق مطلقًا».

وهذه المقارنة في الحديث بين الرفق والعنف هي في مجال الخير، كالتربية مثلا أو الأمر بالمعروف، فحتى لو أثمر العنف نتيجة ظاهرها الخير فإن الرفق يبقى مؤثرا في النفوس أكثر، وعليه الأجر مما لا يوجب على العنف.

2- الرفق صفة نبوية:

امتن الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه رفق ولان لإخوانه المسلمين، فجمعهم الله عز وجل على رسوله بهذا الرفق وبهذا اللين، فقال عز وجل: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ» قال ابن كثير رحمه الله: «أي لو كنت سيئ الكلام، قاسي القلب عليهم، لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، والآن جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم».

2- الرفق أصل في الإسلام:

الإسلام هو دين اليسر والرفق واللين والرحمة، فقد جمع الله تعالى في هذه الشريعة الإسلامية بين كونها حنيفية خالصة وبين كونها سمحة سهلة؛ فهي حنيفية في التوحيد والقصد، سمحة في العمل والعبادة. قال الله عز وجل في صفة نبي الأمة: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

فهذه الآية الكريمة من أقوى الأدلة على أن شريعة المصطفى أسهل الشرائع، وأنه وضع عن أمته كل ثقل كان في الأمم السابقة، فكانت هذه الأمة أمة وسطًا، أريد بها اليسر.

قال ابن كثير رحمه الله: «إِنَّ النَّبِيَّ جَاءَ بِالتَّيسِيرِ وَالتَّسَامُحَةِ وَالتَّارْفِقِ، وَقد كانت الأمم التي قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم، فوسع الله على هذه الأمة أمورها وسهلها لهم».

فهذا موضوع أخلاقي عظيم من الأخلاق الفاضلة التي حث عليها الإسلام حثا شديداً كما سيتبين معنا إن شاء الله في طيات الآيات والأحاديث، وهو موضوع الرفق، الذي بلغ من الأهمية أنه يدخل في أعمال كثيرة من الأعمال التي يقوم بها الإنسان المسلم، بل إنه يدخل في أبواب عظيمة من أبواب الإسلام.

تعريف الرفق:

الرَّفْقُ فِي اللُّغَةِ: لِينُ الْجَانِبِ، وَطَافَةُ الْفِعْلِ، وَإِحْكَامُ الْعَمَلِ، وَالْقَصْدُ فِي السَّيْرِ. وَالرَّفْقُ بِرَادْفِهِ الرَّحْمَةُ، وَالشَّفَقَةُ، وَاللُّطْفُ، وَالْعَطْفُ، وَيَقَابِلُهُ الشَّدَّةُ، وَالْعُنْفُ، وَالْقَسْوَةُ وَالْفَطَاطَةُ.

وَلَا يَخْرُجُ الْمَعْنَى الْإِصْطِلَاحِي لِلرَّفْقِ عَنِ مَعْنَاهُ اللَّغَوِيِّ. قال العسكري: «والرفق هو اليسر في الأمور والسهولة في التوصل إليها وخلافه العنف وهو التشديد في التوصل إلى المطلوب، وأصل الرفق في اللغة النفع، ومنه يقال: «أرفق فلان فلانا» إذا مكنته مما يرتفق به، ومرافق البيت المواضع التي ينتفع بها زيادة على ما لا بد منه».

وقال الغزالي: «اعلم أن الرفق محمود، ويضاده العنف والحدة؛ والعنف نتيجة الغضب والفظاظة، والرفق واللين نتيجة حسن الخلق والسلامة؛ وقد يكون سبب الحدة الغضب، وقد يكون سببها شدة الحرص واستيلاءه، بحيث يدهش عن التفكير ويمنع من التثبت؛ فالرفق في الأمور ثمرة لا يثمرها إلا حسن الخلق، ولا يحسن الخلق إلا بضبط قوة الغضب وقوة الشهوة، وحفظهما على حد الاعتدال».

فضل الرفق وأهميته:

إن الرفق نعمة عظيمة من نعم الله عز وجل، من أعطاه الله إياها، فقد فاز بخير عظيم في الدنيا والآخرة، ويتبين هذا الفضل مما يلي:

1- الله عز وجل رقيق يحب الرفق:

فهو من أسماء الله عز وجل، فقد سماه به النبي صلى الله عليه وسلم عليه وسلم علي سبيل الإطلاق مرادا به العلمية ودالا علي الوصفية في بعض النصوص النبوية، وقد ورد المعنى محمولا عليه مسندا إليه، كما قال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ».

وعن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ».